الأصول التربوية للطريقة الرحمانية*

أ / ماجدة القاسمي كلية العلوم الإسلامية –جامعة الجزائر-1-

حاجة المسلمين إلى التربية الروحية الراشدة المسترشدة بهدي القرآن وسيرة المصطفى ﷺ، حقيقة موضوعية لا ينكرها إلاّ مكابر، ومن ثمّ كانت الحاجة ماسّة لمدرسة تربوية مؤسسة على قواعد سلوكية متخصصة في مجال دراسة النفس وعلاج أمراضها وآفاتها، إسلامية المنهج، وإذا كان للمجتمع سابق صلة بهذا النوع من المؤسسات التربوية الراقية، فمن غير المنطقي التفكير في إنشاء مدارس جديدة قبل الدراسة الجدية للخبرة المعرفية والتربوية المحلية، من هنا آثرت التعريف بمدرسة جزائرية المنشإ والمحتوى، عملت على تحقيق مساعي التربية وتفعيلها في واقعنا المعيش، نتوقّف عندها لأجل الاستفادة من خبراتها بعد تنقيتها مما قد يكون علق بها من انحرافات في الفهم والتطبيق والإبقاء على جوهره النفيس السليم، وتقديمه في صورة شرعية علمية ذوقية، توجه المسلم المعاصر إلى طرق تحسين الأخلاق وصقل صفات النفس؛ ويلجأُ إليها كُلما أعيته الذنوب، وأهكته ضراوة الشهوات، وغلّفت مادِّية هذا العصر قلبه.

لعلّ من أهمّ المدارس التي تتطابق مع العيّنة المشار إلى مواصفاتها أعلاه، الطريقة الرحمانية التي تمثل أحد المعالم البارزة في الخبرة الصوفية والمرجعية الروحية بالجزائر، المؤسسة على الغاية الأخلاقية، عبر أصولها التربوية.

الطريقة الرحمانية طريقة صوفية جزائرية أصيلة. أشاد أركانها وأرسى قواعدها، الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري البوعلاوي، والإسماعيلي، والقجطولي،

والجرجري، والزواوي، نسبة إلى قرية بوعلاوة بعرش آيت إسماعيلمن إقليم قجطولة من أرض جرجرة والزواوة؛ فإلى هذه الأماكن ينسب؛ وبها يعرف ويلقّب.غير أن لقب الأزهري، هو الأشهر والغالب عليه؛ لقّب به مجاورة، حين ارتحل إلى مصر، قاصدا تحصيل العلم في الأزهر الشريف[1]. جمع الأزهري بين علوم الشريعة، وعلوم التربية، وشهد له علماء عصره بالعلم والفضل، وأجازوه؛ منهم الشيخ أحمد الدردير والشيخ محمد سالم الحفناوي[2].

أثمرت جهود الأزهري التعليمية والتربوية مدرسة سلوكية تهذيبية تهدف إلى تصحيح مسار المسلم، وتعمل على تصفية قلبه من الشوائب، ونفسه من الآفات لترقية عبادته إلى درجة الإحسان في القول والعمل وفي علاقته مع الله. أُسست عمليا لمنهج الأخلاق والفضيلة؛ واستقت معارفها وأصولها من النصوص الشرعية والخبرة الأصيلة.

فهي طريقة في التربية والتهذيب للخُلق، وعلاجِ النفس من عيوبها، والقلب من أمراضه، والسبيل الموصل للتطهير من الرذائل، والتحلي بأحسن الفضائل، ونهج الوصول إلى المولى الحق.

يؤكده ما ورد في أدبيات الرحمانية: "الطريقة أن يسعى الإنسان في تخليص نفسه من رق الهوى، وتزكيتها بالتخلية من أوصافها الذميمة، والتحلية بأوصافها الحميدة. والانتقال من غفلته عن مولاه إلى الغنى عن مشاهدة سواه. فيصير في زيادة مع الله، دائم التقرب منه"[3].

(1) مصطفى باش تارزي، المنح الربانية: ص11؛ أبوالقاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف: ج 2/ص457؛ عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام: ج4/ص47.

(2) عبد الرحمان الجبرتي، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار: ج2/ص32؛ ج1/ص339.

(3) محمد الصغير، تعطير الأكوان: ص186.

"وأنها طلب الترقي إلى التحلي بأوصاف الكمال، وصفاء الباطن؛ والتخلص من قبيح الفعال والتخلي عن الأوصاف الذميمة"[1].

ويستفاد مما سلف بيانه أن الطريقة مذهب وسلوك، ومنهج وأسلوب عملي يدعو إلى كيفية مخصوصة في تهذيب الأخلاق؛ يؤسسها مبدأ التخلي، ويجمعها هدف التحلي، وغاية القرب إلى الله تعالى. إذ على قدر التخلي من الأخلاق المعلولة والتحلي بالأوصاف المحمودة يكون القرب والوصول والترقي.

هذه الأوصاف بأصنافها قدم الرحمانية تعدادها وبيانا لأهمها:

فالذميمة منها: كالجهل والغضب والحقد والحسد والبخل والتكبر والغرور والرياء والتقاطع والتهاجر والحرص وطول الأمل... وسوء الأخلاق عامة.

والحميدة منها: كالحلم والعلم والتواضع والصبر والشكر والزهد والتوكل والحياء والرضا والإخلاص والصدق والرحمة للخلق وصفاء الباطن وسلامة الصدر، وحسن الخلق عامة[2].

وقد جمعوا في هذا التصنيف أكثر الآفات فتكا بالنفس، وإبعادا عن الله تعالى؛ وأحسن الفضائل للأعمال، وأشدها توثيقا بالله عزّ وجلّ.

مما يظهر تأكيدهم الغاية والمعنى الأخلاقي؛ وأن مدار الطريقِ وحاصله التربية والترقية والتصفية والتزكية.

(1) مصطفى باش تارزي، المنح الربانية: ص22.

(2) مصطفى البكري، السير والسلوك: ص28.

وهو المنهج والمسلك الذي جعل الرحمانية أساسه مجموعة أصول هي سلم الوصول إلى رضوان الله تعالى. وتمثل الأدوات العملية التي تبنى عليها العملية التربوية التقويمية.

هذه الأصول جمعها الرحمانية ورتبوها من أساسيات وفضائل التزكية الواردة في الشريعة الإسلامية وتخيروا أقواها وأشدها محقا للآفات وأسرعها تجسيدا للتحلية بمحاسن الصفات.

ورد ذكرها عن صاحب الطريقة وتحديد عددها، في قوله: "رتب أهل الطريق أحكام الطريق وأصوله؛ وهي ثلاثة عشر أصلا: التوبة والمجاهدة والحزن والدعاء والخوف والرجاء والورع والتقوى والزهد والصبر والشكر والقناعة والتوكل"[1].

وهي الأصول التي سأتناول عرض تعريفها، وبيان ارتباط كل عنصر بغيره والنظر في طريقة استعمالهم لها، وفق قانون التخلي للتحلي أساس التربية وتوظيف هذه الأدوات الشرعية.

1- أصول الوصول للتخلية

راعى الرحمانية التدرج المتأني، والاحتواء لتفاصيل العملية التطهيرية وفق متطلبات مرحلة التوبة والاستقامة، بتكثيف وتنويع الجرعات العلاجية، واعتماد أصول للتخلية من الذنب ومقاومته، وعضدته بأصول تربوية لتثبيت التوبة، وإحكام أحكامها في النفس على نحو يحقق نتائج التطهير والتصفية. ومنه فإن أصول الوصول للتخلية تنقسم إلى أصول مقاومة الإثم، وأصول لتثبيت التوبة على النحو المبين في الآتي:

(1) الأزهري، شرح على الريفاوي: ص49.

أ- أصول مقاومة الإثم

تمثل هذه الأصول عناصر اجتثاث الذنب، ومغالبته، وهي التوبة الأصل الأصيل للتربية والتهذيب؛ ثم المجاهدة الصورة العملية لها؛ ومساعداتها الحزن لاقتراف الذنوب والآثام؛ والدعاء لطلب العون والخلاص من أسباب المعاصي، والشفاء من آثارها؛ ثم عنصر الخوف والترهيب من سوء العاقبة والوعيد؛ والرجاء عنصر الترغيب في الوعد، وقبول التوفيق. وقدموا وجه استعمال ذلك على النحو الآتي تفصيله:

- التوبة

أولى مراتب السالكين القاصدين طريق الله تعالى عند الرحمانية، والقاعدة لكل بناء وأساس، فمن لا توبة له لا بناء له ولا أساس؛ فهي أول باب يدخل منه العبد حضرات القرب من جناب الرب، بها تبدأ مراحل التصفية والتزكية استعدادا للتخلية والترقية؛ ومن ثمّ فهي آكد أدوات التخلية، وأصل أصول التربية، الصارفة عن النفس آذاها، المطهرة لها من آفاتها المعنوية، الرادة للمتلبس بها إلى حضرة المولى عز وجل، يؤكد هذا الدور ويبرزه تعريف الأزهري بأنها "الرجوع إلى الله تعالى عما هو مذموم في الشرع إلى ما هو محمود فيه"[1]، "بترك ما لا يعنى من الأقوال والأفعال البدنية والقلبية"[2]، كما أضاف مصطفى باش تارزي؛ بما يفيد معاني الرجوع عما يبعد عن الله إلى ما يقرب إليه عز وجل، بتعدد صور القرب ودرجاته، من الرجوع عن "أقوال الألسنة إلى الرجوع عن أفعال الجوارح، نهاية

(1) الأزهري، شرح على الريفاوي: ص40.

(2) مصطفى باش تارزي، المنح الربانية: ص72.

بالرجوع عن أحوال القلوب، وترك ما لا يعني قولا وفعلا وإرادة"[1]كما بين ذلك الأزهري.

مما يظهر إشراك الأفعال القلبية في التوبة عند الرحمانية، وشمولية عملية التطهير بها، والتلبس بمعانيها، بأن تكون قولا إلى أن تصبح فعلا، إلى أن تغدو حالا وصفة متجذرة في أعماق نفس المريد، وإراداته، هذه الإرادة هي المعنية بالأداة الثانية لمقاومة الذنب وهي المجاهدة، في أدوات التخلية عند الرحمانية.

– المجاهدة

المجاهدة، من آثار التوبة عن الذنب والإقلاع عنه، الذي يتطلب إرادة تدفع عدم معاودة النفس إلى المعصية، وإخضاعها لأوامره تعالى، فمن هذه المغالبة للنفس، وإرادة المنع، والإخضاع تتولد المجاهدة، وقد قيل: "من صدق في توبته لزمته المجاهدة بعد التوبة، واستعمال جوارحه في العبادات"[2]، لهذا كانت المجاهدة عند الرحمانية، الأداة الفاعلة لتخلية النفس من آثامها، وعلاجها من آفاتها، وترويضها على الطاعات، ورد ذلك عن صاحب الطريقة في قوله: "الثاني المجاهدة للنفس...واعلم أيها المريد الموفق السعيد أن القوم أجمعوا، على أن المجاهدة لا بد منها للمريد، في ابتداء أمره، وأن من رام طريقا بغير مجاهدة، فقد رام المحال"[3].

وورد تعريفها، بما يحقق معاني التطهير وإرادة التغيير، فهي بذل الجهد وتحمل المشاق وبلوغ الغاية من الأمر من الطاعات، وترك المألوفات، في قول مصطفى باش

(1) الأزهري، طي الأنفاس: ص19.

(2) المقدسي، حل الرموز لمفاتيح الكنوز: ص14.

(3) الأزهري، شرح على الريفاوي: ص41.

تارزي: "هي إتعاب النفس، في فعل المأمورات، وترك المنهيات، والمألوفات والعادات وتحمل المشقات"[1].

بمعنى بذل النفس الغاية من الجهد، في حدود ما أمر منها من الطاعات حتى تصير لا تفر منها، والتخلي عما ألفته من عادات بمنعها شهواتها، وهو مفهوم جامع وواضح لدور المجاهدة في التخلية لتركيزه على صفتين من أكثر صفات النفس فتكا بها، وهي الانهماك في المألوفات والعادات والشهوات والتمنع عن الطاعات.

ذلك "أن من عيوب النفس أن تحول بين العبد والعمل بما كلف إما تشاغلا بالأضداد من المعاصي والشهوات، وإما تكاسلا ونفورا عما اشتملت عليه التكاليف من المشقات، وميلا إلى الضعة"[2].

ومنه فقد تقرر عند الأزهري: "أن النفس مهما عودتها، تعودت، وإن منعتها صبرت، واستمرت، وإن تركتها في شهواتها غوت، وهلكت"[3].

ونظرا لما للمجَاهدة من فاعلية وأثر في السير إلى الله تعالى فهي عند الرحمانية العمل الدائم المستمر في رحابه تعالى، وبذل الجهد وعدم ترك المشقة في القيام بالتكاليف، ورفع صفة التمرد والنفور من الطاعات، وتخلية النفس من الصفات المانعة لها من الخير وأعظمها على الإطلاق إتباع الهوى والشهوات. إذ المجَاهدة وكل المجَاهدة في مخالفة النفس وهواها، يتجلى ذلك في قاعدة العمل بالمجَاهدة، في قول الأزهري: "من لم يجاهد نفسه في جميع الحالات، ولم يخالفها في جميع الشهوات، ولم يجبرها على جميع المكروهات، فهو مغرور في سائر الأوقات"[4].

(1) مصطفى باش تارزي، المنح الربانية: ص73.

(2) السنوسي، المنهج السديد: ص367.

(3) الأزهري، شرح على الريفاوي: ص43.

(4) الأزهري، شرح على الريفاوي: ص43.

هذه القاعدة التي يلزمها مساعدات في الطريقة الرحمانية لتحقيقها على أحسن وجوه كمالها.

– الحزن

الحزن مما يساعد على مجَاهدة النفس، ومحاربتها لاقترافها الذنب بتذكيرها الدائم وتعنيفها على عِظم زَلَلِها، وملازمة التحسُر على ما صدر منها من آثام، وما فاتها من طاعات وهو مما تتحقق به التوبة "إذ التوبة لا تكون ما لم تتحقق بالندم على ما مضى، وعلامة ذلك طول الحسرة والندم"[1].

فالحزن يستلزم التوبة، ويدفع إلى المجَاهدة، لمحو الذنب وآثاره وقد جمع الرحمانية ذلك في تعريف يبين دور الحزن وأثره في التربية والتهذيب، فهو كما ذكر الأزهري: "الغم الحاصل لوقوع مكروه، أو فوات محبوب في الماضي، الذي بأثر منه يكون قبضُ القلب عن التفرقة في أودية الغفلة"[2]. وميادينها بما يعني انكسار القلب وخشوعه، واحتراقه على ما اقترفه من موبقات وآفات، وعلى ما ضيعُه من طاعات وعبادات، وعلى ما قطعه من أوقات التفرقة والغفلة المضعفة له، عن تمام سيره وجدّه في سلوكه إلى مرضاة الله، فهو حزن وغم على نقص الحال، وفوات الحظ من المولى عزّ وجلّ.

ومنه فالرحمانية قصدوا في اعتمادهم، الحزن أداة للتخلية، أشد آثاره، على الإطلاق، تأثيرا في القلب، وفعالية فيه لصدّ أعظم آفاته وهي التفرقة، وتوزع الخاطر واشتعال القلب بغير المولى الحق.

(1) السنوسي، المنهج السديد: ص301.

(2) الأزهري، شرح على الريفاوي: ص44.

وهو الأثر المانع عن معاودة الإثم بعد أن ذاق مرارة تجرع الغمّ الحاصل منه، الشعور الذي يدفعه إلى العمل، وبذل الجهد خوفا من سوء العاقبة.

وبأثر من ذلك قرر الأزهري أن الحزن "الأصل الثالث للتربية الذي يقطع به صاحبه، ما لا يقطعه من فقد حزنه في سنين"[1]، فهو الأداة الطاوية لمراحل الطريق، الحارقة لمعوقات السير، يبدأ إحساسا بالتقريع، وينتهي إلى بث إرادة تجنيد الجوارح، واستعمال البدن في الطاعات.

فالحزن، إذن شحذ الهمة، واستنهاض النفس، والقلب لاستدراك وتعويض ما فات؛ فاستحق أن يكون عند الرحمانية، أداة التخلية وآلة غلبة الهوى، ومقاومة الإثم، يلزمها سلاح الثبات لداعي التغيير، والتطهير، وهو الدعاء، العنصر الآتي بيانه.

– الدعاء

الدعاء في الطريقة الرحمانية من توابع التوبة عن الذنب ومخالفة الهوى، ومجَاهدته، والتحزن، والتحسر على ما فرطّ من المعاصي والزلات؛ فهو التضرع لمحو السيئة والرغبة للقبول والتخلية من الإثم.

ورد ذلك في تعريف الرحمانية للدعاء، بما يوضح دوره المساعد للأدوات الفاعلة في التطهير والتزكية للنفس، في قول مصطفى باش تارزي: "هو التضرع والخشوع، والخضوع، لحصول الشفاء من أمراض القلوب"[2]، بمعنى ملازمة السؤال، بذل ومسكنة، ومناجاة الرب تبارك، وبث الشكوى، والتضرع إليه بطلب العفو والتوفيق للتوبة، وإظهار الفاقة، والافتقار إليه بتملق، وتخشع ووجل؛ بما يفيد بيان

(1) الأزهري، شرح على الريفاوي: ص44.

(2) مصطفى باش تارزي، المنح الربانية: ص68.

دور الدعاء في التخلية من آثار الذنب في النفس، وأهميته التربوية التطهيرية، التي عليها أسس الرحمانية مفهومهم للدعاء.

فهو السؤال قبول الرجوع، ومحو ما صدر من أسباب البعد عنه تعالى، تأكيدا لتمام عبودية العبد لربه، والفَزع إليه، وإرادته دون سواه، فقد جمع الدعاء، أبلغ آيات افتقار العبد لربه مع أظهر مراتب العبودية.

مما يدعم مقامه، ويبرز فضله، الذي منه كان الأصل الرابع عند الرحمانية للتربية والتقويم في قول الأزهري: "والرابع الدعاء، فأكثر منه، وابتهل إليه، ولا تمل، ولا تقل إن الله ما يتقبل مني، لأن هذا مما يقطع المريد عن الحق"[1].

فهو الطريق الموصل إليه تعالى، به يحصل القرب منه عزّ وجلّ فهو منتهى العبادات، لاشتماله على معرفة عز الربوبية وذل العبودية.

- الخوف

إتماما لعملية مقاومة الإثم التي بدأت بالتوبة والمجَاهدة والمغالبة ومساعداتها، من حزن نافع دافع، ودعاء رافعٍ شافعٍ، قرّر الرحمانية اعتماد عنصر الخوف المزعج، لدوره في مناضلة، ومدافعة الهوى، والشهوات "إذْ هو سبب اجتناب كل نهي، ومفتاح كل أمر، وليس يحرف شهوات النفوس فيزيل آثارها إلا الخوف"[2] كما بين ذلك أبو طالب المكي.

مما جعله أهم أدوات التطهير، واجتثاث الإثم من أصوله وقد قدم الأزهري تعريفه بما يصور أدواره وآثاره في التربية والتهذيب "بفزع القلب من سطوة الرب،

(1) الأزهري، شرح على الريفاوي: ص44.

(2) أبو طالب المكي، قوت القلوب: ج1/ص225.

وخشية الوعيد، وعدم قبول الأعمال"[1]، فهو ثمرة العلم به تعالى، وبأفعاله، وبصفاته، إذ كلما كان "العبد بالله أعلم كان له أخوف"[2]كما قال ابن القيم الجوزية.

وذلك أكمل معاني الخوف التي هي في أكمل صور المعرفة الباعثة له والخوف كل الخوف، الذي يحجز عن محارم الله تعالى، مما يؤكد دوره في التخلية الذي به اعتماده عند الرحمانية في قول الأزهري: "الخامس الخوف، وصاحبه لا ينقل قدمه لهوى نفسه ولما ليس فيه رضى مولاه"[3].

فليس يحرق موضع الشهوات، ويبعد عن الزلات إلا خوف مزعج دافع لاجتناب كل نهي، والوقوف عند كل أمر خوفا من سوء العاقبة، وسطوة اقتدار العلي الجبار.

- الرجاء

الرجاء عند الرحمانية، به طلب المنة والرحمة، وقبول الأعمال بعد التوبة من الذنب ومجَاهدته بالتحزن، والتضرع لقبول الرجوع إلى حياضه تعالى، والخوف من الصدّ والإبعاد في مرحلة أخرى من مراحل التخلية من الإثم، ورعونات النفس في طريقة التربية عندهم، وقد بيّن الرحمانية أسلوب الأخذ والعمل به بأنه النهوض والتشمير لتطهير النفس وتصفيتها مع الترقب والتوقع لرحمته تعالى؛ في قول الأزهري: "هو توقع أمر محبوب على سبيل الاقتراب، وترقب الانتفاع بما تقدم له سبب"[4].

(1) الأزهري، شرح على الريفاوي: ص44.
(2) ابن قيم الجوزية، طريق الهجرتين: ص229.
(3) الأزهري، شرح على الريفاوي: ص44.
(4) الأزهري، شرح على الريفاوي: ص44.

وهو عند محمد بن عزوز البرجي: "ما قارنه عمل، لأن من رجا شيئا طلبه، ومن خاف من شيء هربَ منه، وأما من سكن إلى وعد الله، ونسي وعيده وسوّف في الطاعة وانهمك في المعصية فهو ذو أمنية واغترار بالله"[1].

في بيانهم لدور الرجاء الوظيفي، الباعث على المواظبة على الطاعات والعمل على مقتضى أسباب المغفرة والقرب إليه تعالى، من إقلاع عن المعاصي، وابتعاد عن المناهي فهو الثواب والجزاء بشرط العمل لاستحقاقه.

وهذا ما يؤيد اعتماد الرحمانية له أداة للتخلية من الإثم والعمل على اجتثاثه في قول الأزهري: "والسادس رجاء قبول الأعمال مع الاجتهاد، فالمطلوب أن يكون العبد خائفا راجيا"[2].

إذ الرجاء وكل الرجاء، رجاء غفران ذنبٍ أو إصلاح عيب، وكلها في دوائر العمل والمجَاهدة لمقاومة الإثم واستخلاص آثاره في النفس.

فالرجاء باعث بطريق الرغبة، والخوف باعث بطريق الرهبة، وكلاهما لازم لإنجاح عملية التربية والتقويم في مراحلها الأولى في مقاومة الذنب وسد منافذ مروره إلى النفس بالتوبة، فالمجَاهدة، فالتحسر والتندم، والتضرع والسؤال، والخوف من الوعيد، ورجاء الوعد والقبول، وصولا إلى تثبيت معاني التوبة والعمل بها تحققا في المرحلة الآتية.

ب- أصول تثبيت التوبة

إرادة التغيير والتطهير عند الرحمانية في عملية التصفية والتزكية، تطلبت التدرج المرحلي، بالانتقال من حال مقاومة الإثم وانتزاع ترسخه في النفس، بأدوات مرّ

(1) البرجي، شرح قواطع الطريق: ص20-21.

(2) الأزهري، شرح على الريفاوي: ص45.

بيانها، وصولا إلى حال تثبيت التوبة، بآليات رأى الرحمانية تجسيدها، وتحقيقها لمعاني العمل بها، وهي الورع عن مواضع الشبهة عن الإثم، سدًا لمنافذه ومداخله، واتخاذ الوقاية المانعة من سبل مرور الإثم إلى الجوارح والنفس بالتقوى، ثم بالزهد في الشهوات والانشغال بها عن المولى الحق، فالصبر على هذه المغالبة والمجَاهدة، فالشكر واستعمال النعم في طاعة المولى العزيز القدير. وقدموا وجه استعمال ذلك على النحو الآتي بيانه:

– الورع

يمثل الورع في الطريقة الرحمانية علامة وإشارة التأكيد لمعاني التوبة وتثبيتها في النفس، والابتعاد عن الذنوب والآثام بما يفيد نجاح مرحلة مقاومة الإثم والوصول إلى مرحلة التحري الزائد عن مجرد الشبهة فيه، ناهيك عن الوقوع فيه أصلا، إذ بالورع تكون محاسبة النفس، ومراقبتها وكذا استقامتها وهو المطلوب، والضابط الذي كان أساس اعتماده أصلا للتخلية لعمق معانيه، وفاعليته دوره في تهذيب النفس الذي عبّر عنه تعريف الرحمانية المبين لأثره في قول مصطفى باش تارزي: "هو الكف عن الشبهات"[1].

فهو الترك والاجتناب، دلالة على زيادة التحري من سبل مرور الإثم إلى النفس، وسد منافذ قنوات العبور إليه من شبهات وغيرها.

إذ به السترة للحلال من الحرام، والوقاية للدين من الخلل والنفس من الزلل ورسم أدق تفاصيل حدود الله تعالى، الأمر الذي كان أساس اعتبار مصطفى باش تارزي له:

(1) مصطفى باش تارزي، المنح الربانية: ص77.

"الأصل السابع للتربية الذي به ينال قمع النفس"[1]، وشهواتها في آخر محاولتها للتمرد والتملص من الطاعات والعودة إلى المعاصي والشهوات عبر قنوات الشبهات.

بما يفيد تهيئة الوازع الديني في النفس، وتربيتها على تنمية اللوم الباطني، هذا الوازع الرابض في القلب الذي يحاسب على كل خطرة، وطرفة، وحظوة، وذلك منتهى العمل بالورع، والاجتناب والترك لكل ما يبعد عن المولى الحق.

– التقوى

قانون الرياضة النفسية في الطريقة الرحمانية التخلية للتحلية، وطريق علاج المريد عبره قد وصل إلى ذروته باستعمال التقوى، المعتمدة أصلا للتخلية، ولا يدرك إلا بقطع مسافات مغالبة النفس والهوى، والمجَاهدة الحثيثة للوصول إلى مرحلة الوقاية والصيانة من أسباب الآفات والعلات.

وقد جمعت التقوى كل أدوار التطهير والتزكية مع التصفية عبر عنها قول الأزهري: "التقوى صيانة النفس عما يستحق به العقوبة وتجنب القبيح خشية من الله تعالى بالتحرز بطاعة الله عن مخالفته، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه وكل ذلك يستلزم مخالفة النفس"[2]، المطلوب والمراد من التربية والتهذيب والعمل بالتقوى.

فحقيقة التقوى الجامعة عندهم، هي صيانة النفس بالتحرز والحذر والحفظ بالطاعات والآثام بأن "يجعل المتقي بينه وبين المعاصي وقاية تحول بينه وبينها من قوة عزمه على تركها واستحضار علمه بقبحها"[3]، ذلك أن استشعار معاني التقوى،

(1) مصطفى باش تارزي، المنح الربانية: ص104.
(2) الأزهري، شرح على الريفاوي: ص46.
(3) البرجي، شرح قواطع الطريق: ص28.

والتحقق بها، يولد لصاحبها المناعة تجاه الإثم، بازدياد جرعة التحسس به، التي تجعله يلتقط مصادره ويرد عليها بقوة تدفعها بعيدا، وذلك لدرجة الصفاء في القلب، وصل إليها عبر التقوى تطبع صور تلوث النفس بسرعة مستنهضة الإرادة لتجنيد الجوارح والجوانح في مرضاته تعالى.

وتلك هي الغاية التي استحق بها أصل التقوى أن يكون عند الرحمانية "أم الأمهات في الأصول، ولا أجمع منها لفنون الخيرات الواقية للمريد بكل ما يطهره، ويزكيه، ويرفعه إلى ذروة الكمال"، والوصول إلى أعلى الدرجات في التحقق بمحاسن الصفات.

– الزهد

إن مرحلة الزهد في الطريقة الرحمانية، قد هيأ تحقيقها ما سبق من أصول تثبيت التوبة، حيث كان الورع لتجنب ما يشتبه فيه، دفعا لجميع احتمالات الخطإ وسدا لذريعة الزلل، ثم ارتفع مستوى التعامل، ليصل إلى أداة التقوى لمنع تسلل الذنب، ولإقامة الاستقامة درعا مانعا، واقيا، أكثر تحريا، وأقوى أثرا، ثم كان الزهد نتاج الورع والتقوى، ووسيلة وقائية أبعد غورًا في النفس، وأشمل دورًا للتخلية من فتن الآثام والمعاصي، ومغرياتها، وذلك بمطلق الإعراض والترك، والرغبة عنها عدولا إلى الله تعالى، وهو معنى الزهد المبين في قول الأزهري بأنه: "الترك والإعراض والرغبة عن الدنيا، وملذاتها، وليس بأكل الغليظ ولا بلبس العباءة، وإنما بقصر الأمل فيها"[1].

(1) الأزهري، شرح على الريفاوي: ص46.

فقصر الأمل هو الجامع لجميع الشهوات، فإن "من يميل إلى الشهوات يحدث نفسه فيطول أمله، ومن قصر أمله فكأنه يرغب عنها كلها"[1] كما قال الغزالي في الإحياء؛ بما يفيد الجمع لصور الإعراض والرغبة عن الدنيا وفتنها ورسم دور الزهد النافع الباعث على التخلية والتركيز على معاني الزهد القلبية، وأبعاده التربوية، لإصلاح علاقة العبد مع ربه، بتفريغ القلب من حب الدنيا وشهواتها وتوجيهه إلى معرفته تعالى، وعبادته، وهي الغاية من وجوده فيها، فهي وسيلته ومطيته للآخرة وليست وجهته ومطلبه.

ومنه كان الزهد عند الرحمانية سبب التخلية من كل إثم والتخلص من كل شهوة حسية أو معنوية صارفة لجوارحه وقلبه عن عبادة ربه، فاستحق أن يكون الأصل التاسع في طريقتهم للتهذيب الذي به التخلية من حظوظ النفس وصفات عدم الخضوع والانقياد لطاعته تعالى.

- الصبر

إنّ تثبيت التوبة، بالورع والتقوى والزهد، في الطريقة الرحمانية، لا يمكن التحقق به والاستمرار عليه، إلا مع صبر يحقق الثبات أمام داعي الهوى والشهوات؛ إذ به مقاومة آلام المجاهدة، والمغالبة للنفس، فهو أداة لازمة لمواصلة العملية التطهيرية لتأكيد نتائجها التربوية.

ومنه فالصبر عند الرحمانية، هو قوة من قوى النفس، به "حبسها عن الجزع والشكوى، وثبات القلب، بين يدي المولى"[2]، بمعنى تخلية النفس ومجَاهدتها بحبسها عما تحب من الشهوات، وحملها على ما تكره من طاعات، فهو عنصر الثبات

(1) الغزالي، إحياء علوم الدين: ج4/ص317.

(2) الأزهري، شرح على الريفاوي: ص46.

والإقدام على الطاعات، والمقاومة والمكابدة للشهوات، لذلك كان الأصل العاشر في قول الأزهري: "العاشر الصبر فينبغي للسالك المكابدة به"[1].

وأضاف مبينا وجه ذلك: "بالصبر على ترك المخالفات بأن يحبس نفسه عما يخالف الشرع، والصبر على الطاعة بأن يكلف نفسه كل عمل شاق يعسر عليه ارتكابه"[2].

وتبعا لمبدإ التخلية من الإثم وما يجره من صفات مهلكة للنفس، فإن الصبر عند الرحمانية، يستعمل لتحقيق تزكية وتصفية المريد، وتقوية علاقته بربه بالوقوف عند حدوده، فيما أمر ونهى، والخضوع والرضا لأحكامه فيما قدّر وسطرّ ودبر؛ إذ الصبر وكل الصبر حبس النفس وثباتها عند أحكام الله تعالى أمرًا ونهيًا.

- الشكر

قد يُعد "أكمل وجوه الصبر في الشكر، الشكر لله في السراء والضراء على ما أولاه من نعمة الصبر، فالشكر هو العمل بطاعة الله وترك معصيته والصبر أصلها، كما أن الصبر على الطاعة وعن المعصية فالشكر إقامة له"[3] كما ذكر ابن القيم الجوزية.

ومنه فإن التلازم بين الصبر والشكر في الطريقة الرحمانية مما يحقق نتائج التطهير في آخر مراحل التثبيت للتوبة والعمل بها، في أسمى فنون العبادة وأعظم معاني عبودية العبد لخالقه، بأن يقف عند حدود خالقه، شكرا، وعرفانا وامتنانا.

(1) الأزهري، شرح على الريفاوي: ص48.

(2) الأزهري، شرح على الريفاوي: ص47.

(3)ابن قيم الجوزية، عدة الصابرين: ص15.

وهو ما عبرت عنه رؤية الأزهري للشكر بأنه "الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع والثناء على المحسن بذكر إحسانه"[1].

"وصرف العبد جميع ما أنعم الله به إلى ما خُلق له، وأعطي لـه مـن أجلـه، باللسان، والجنان، والأركان"[2].

بمعنى العرفان عمومه وخصوصه صرفه لله تعالى لكونه المـنعم والمحسـن الأول ووجه كماله، في تمام الخضوع له تعالى.

وهي المعاني التي اعتمدها الرحمانية في ضبط حقيقة الشكر العملية، المبرزة لدوره في التخلية، بأن لا يعصي الله بنعمه.

فالشكر نعم القيد للتوفيق إلى الطاعات، ونعم الصيد للتخلية من ذميم الصفات، ومنه كان الشكر أتم، وأعم وأكمل صور الخضوع والخنوع والفاقة والحيـاء مـن عظيم النعم، الذي يقابله جهد المقل لإحسان أداء هذا العرفان بالجميل، والتحقـق بالإحساس لذلك الذي يولد إرادة التخلي عن الجحود بهذه النعم واسـتعمالها في معصيته تعالى، وغير مرضاته، الأمر الذي كان منه ترتيـب الشـكر في الطريقـة الرحمانية، بعد التحقق بأصولها عبر مراحلها كما مرّ، لتتوج بـه، وإنزالـه المترلـة الحادية عشرة، مكملا لأدوات تثبيت التوبة، وأصول التخلية عامـة، وصـولا إلى أصول الوصول والتحلية بعناصره القناعة والرضا، بما قسم وقدر، والتوكل عليـه واللجوء إليه إتماما لعملية التربية والتطهير، وإحقاقا لمعاني التوحيد، والتفريـد لـه، بالطاعة والخضوع، والتوجه إليه وإفراغ الهمة له وحده، دون سواه، وهو ما يقرره الآتي بيانه.

(1) الأزهري، شرح على الريفاوي: ص48.

(2) مصطفى باش تارزي، المنح الربانية: ص80.

2- أصول الوصول للتحلية

تطلب العمل التقويمي في الطريقة الرحمانية التدرج في التهذيب عبر كل عنصر وكل أصل وفق متطلبات مراحل التطهير والتصفية عبر أصول مقاومة الإثم، من توبة ومجاهدة وآلياتها انتهاء إلى تثبيت العمل بالتوبة بالورع، والتقوى ومقوماتها وصولا إلى عناصر الوصول: القناعة والرضا والتوكل وهو مسلك توحيدي، خالص، صفا شربه.

يظهر ذلك في بيانهم لطرق الأخذ بعناصر الوصول التي بها تحقيق الرجوع إليه تعالى والعبودية له دون سواه، وذلك "بالقناعة والرضا بما قسم، والرضا عن الله تعالى في حال القليل والكثير، وفي حال المنع والعطاء، لاعتقادهم على أن ذلك دليل على الرضا واقع من غير علة بل لمجرد العبودية"[1].

فكان الرضا الطريق لتحقيق عبوديته باستسلامه وانقياده لخالقه؛ والذي من أجلّ ثماره وأظهرها التوكل عليه تعالى، وترك التدبير له، وعليه فيما حكم وقسم وهو ما عبر عنه تعريف الرحمانية الذي يؤكد أنّ التوكل هو "إفراد الوجهة إليه، والاستناد والاعتماد والاكتفاء والثقة به"[2].

وهذا يفيد معاني الانقطاع واللجوء إليه، وتفويض الأمر إليه، في جميع الأحوال والتبرؤ من الحول والقوة وذلك ثمرة المعرفة بالله، وصفاته.

فهو الاسترسال مع الله على ما يريد، لفناء إرادته في إرادة الله تعالى فلا يكون إلا ما يريد، تأكيدا لعز قهر الربوبية وذل وخضوع العبودية.

(1) البرجي، شرح قواطع الطريق: ص46.

(2) البرجي، شرح قواطع الطريق: ص44.

وهو الأمر الذي كان منه "التوكل أصل الأصول في الطريقة الرحمانية الذي ليس بدونه وصول، ولا من غير بابه دخول"[1] كما جاء عن الأزهري، والذي به تتم عناصر الأصول التي اعتبرها الرحمانية سلم الوصول إلى التخلية والتصفية علامة التزكية التي كان تدرج التهذيب عبر كل عنصر وأداة فيها وفق متطلبات وضرورات العلاج والتقويم.

لقد بدأ الرحمانية بعنصر التوبة باب الأبواب والأداة اللازمة لتثبيت التخلية والتصفية؛ وصورته العملية التطبيقية المجاهدة والمكابدة؛ وآلياتها من حزن واحتراق لارتكاب الذنب، وانقباض القلب من أثر دخول لذة الإثم واستمتاعه بها؛ ودعاء دافع شافع لطلب العون، والشفاء من الموبقات وآثارها، والثبات وعدم الانتكاس بنقض عهود التوبة ومواثيقها؛ وخوف من سطوة الجبار وعاقبة معصيته، وعدم الانتهاء عند مناهيه والامتثال لأوامره؛ وتطعيم ذلك بالرجاء والطمع في رحمته مع العمل للحصول على موجبات مغفرته.

وتثبيت ذلك كله بالورع والتيقظ الشديد لمصادر الإثم، والاستشعار بمهداته، ومصادر الشبهة فيه؛ وإقامة سد منيع وحصين من التقوى، والاحتراز من الإثم وبواعثه.

ومرد ذلك كله إلى الزهد في الدنيا ومحابها وطلب الآخرة؛ والصبر على هذه المغالبات والمكابدات، بحبس النفس وثباتها عند أحكام الله تعالى أمرا ونهيا؛ فالشكر على هذا التوفيق، والتوجه السديد بعدم معصيته بنعمه، واستعمالها في طاعته، إذ هو نعم القيد للتوفيق للطاعات، ونعم الصيد للتخلية من ذميم الصفات، وهو أتم

(1) الأزهري، شرح على الريفاوي: ص49.

وأعم وأكمل صور الخضوع والخنوع، والفاقة والحياء، وأسمى فنون العبادة، وأعظمِ معاني العبودية، وبه تمام أدوات التثبيت للتوبة والتخلية عامة في الطريقة الرحمانية.

وخلصوا في الأخير إلى أصول الوصول والتحلية وهي الرضا والقناعة بما قسم وقدر في حال القليل أو الكثير، وفي حال المنع أو العطاء، والتوكل عليه تعالى، وترك التدبير له وعليه فيما حكم وقسم، والاستناد والاعتماد عليه، واللجوء وتفويض الأمر له، والتبرؤ من الحول والقوة. وهو مسلك توحيدي غايته الرجوع إلى الله تعالى إيمانا وإيقانا، عملا وقولا وحالا.

تمثل هذه الأصول التربوية في مجملها التعامل المتأني المرحلي والواقعي مع تطبيقات آليات الاستقامة وأدوات اجتثاث الآفات وتثبيت الطاعات.

تعليقا وجمعا لما تقدم ذكره:

فإن الطريقة الرحمانية سيرة فاضلة، وسبيل راشد، يدعو لكيفية التهذيب للخلق، وعلاج النفس من أمراضها وعللها.

وهي مدرسة أخلاقية لتهذيب النفس وترويضها عمليا، لبلوغ درجات الكمال التربوي؛ اعتمدت قانون رياضة التخلية والتحلية عبر أصول التربية والتصفية.

وفقت الرحمانية بدرجة عالية في اختيار أدوات مبدأ التخلية للتحلية ووسائلها، ممثلة في أصولها التربوية، فقدمت بذلك وصفة علاجية شرعية عالية المستوى تعكس الخبرة الأصلية في معرفة دقائق النفس ومجاهلها وأسباب شفاء أمراضها؛ والأدب العالي لنهج طريق الوصول إلى الله تعالى والتحري الزائد في التحقق والإحسان في معاملة الحق والخلق.

كما أنها جسدت معاني الانتهاء إلى المولى عز وجل، بمسلكها التوحيدي وغاية الرجوع إلى المولى تعالى؛ مصداقا لقوله تعالى:﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ (النجم42).

وأخيرا وما نختم به هو وقفة تأمل في درجة معرفة أهل التصوف والطرق الصوفية لحقائق النفس الإنسانية وطرق علاجها وتزكيتها وسد منافذ الشيطان إليها وسبل الاستشعار بالعبادات، والتحقق بها، بعد تصفية القلب والنفس من علائقهما الدنيوية.

فحبذا لو تتضافر الجهود لإحياء التراث الروحي وتجديده ونفض الغبار عليه لإصلاح مناهجه.

إنها دعوة لبعث الروح في مناهج الإعداد التربوي الروحي للنشء المسلم وإعادة النظر فيه.

مصادر البحث

- أبو طالب المكي (ت 386هـ)، قوت القلوب في معاملة المحبوب، دار الفكر.
- ابن قيم الجوزية، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، الطبعة الخامسة، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1983م.
- أبو يوسف السنوسي، (ت 895هـ)، المنهج السديد في شرح كفاية المريد، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم2965.
- أبو القاسم الحفناوي (ت1942م)، تعريف الخلف برجال السلف، الطبعة الأولى، لبنان، مؤسسة الرسالة، 1982م.
- أحمد بن غانم المقدسي، حل الرموز لمفاتيح الكنوز، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالحامة رقم933.
- عبد الرحمان الجبرتي (ت 1237هـ)، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، لبنان، دار الجيل.
- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الطبعة الأولى، لبنان، دار الثقافة، 1979م.
- محمد منير السمنودي، تحفة السالكين ودلائل السائرين، مخطوط بزاوية الهامل، غير مرقم، نسخ في 1276هـ.

● محمد بن عبد الرحمن الأزهري، شرح على الريفاوي، مخطوط بزاوية الهامل، نسخ في 1282هـ.

● محمد بن عزوز البرجي، شرح قواطع الطريق، مخطوط بزاوية الهامل.

● مصطفى باش تارزي القسنطيني، المنح الربانية في بيان المنظومة الرحمانية، المطبعة الرسمية التونسية، 1307هـ.

● محمد الصغير بن الشيخ المختار بن خليفة (ت 1906م)، تعطير الأكوان بنشر شذا نفحات أهل العرفان، الجزائر، المطبعة الثعالبية، 1916م.

*ماجدة قاسمي الحسني